رسالة الأديب الى الحياة العربية

للكاتبة النابغة الآنسة « مى »

« تبشر أصدقاء « مي » وعشاق أدبها باكتشاف النعمة من محنتها وحريتها ؛ فقد استطاعت أن تلقى هذه المحاضرة الطيبة في ٢٢ من شهر مارس في العروة الوثقى بالجامعة الأمريكية مى حفل حاشد من أعيان الفضل والأدب فكانت أقطع الحجج على ما أرجف به المرجفون من أصحاب الهوى والطمع . وإنا ليسرنا أن ننقل إلى قراء الرسالة هذه المحاضرة عن جريدة المكشوف اللبنانية ليروا أن (مي) لا تزال على عهدها بسع بالنور ، وتفيح بالعطر ، وتنبض بالحياة »

سلاماً يا وست هول ، يا موطن الفكر والرأى والحياة المنظمة في كرامة وحرية ! كم من مرة جلست بالخيال بين جدرانك أتبادل والجمع الحاشد قوة الحيوية ، وآخذ قسطى مما يبعث في فضائك من فائدة علمية واجتماعية ! كم من مرة عدت بالذكرى إليك أصغى بخشوع إلى رسالات الفضل والعلم والتهذيب يتلوها هنا العلماء والمفكرون والمصلحون !

سلاماً أيتها « العروة الوثقى » ، الساهرة على وظيفتك في تنوير الأفهام ، الحريصة على غايتك في إحكام الرابطة العلمية والأدبية بين أقطار الشرق العربي ! كم من صيحة أرسلها أقطابك وأتباعك وأنصارك من على هذا المنبر المضياف ، فمضت كالطير تسبح في القريب والبعيد من الأجواء حاملة رسالة العلم الصادق والبحث الرصين والخير العميم ، فتكونت في أوساط قصية مواطن للفكر والرأى والحياة المنظمة في كرامة وحرية !

ولئن أنا شكرت لك تشريفي بدعوتك واقتراح الموضوع ، فإني كذلك شاكرة لأنك أفسحت لي مكاناً كريماً بين كرام ضيوفك ، عاملة بيدك القوية الوفية على إحكام الرابطة بيني وبين قومي ؛ وأشكر لكم أيها السادة والسيدات تفضلكم بالحضور .

إن اسم « العروة الوثقى » يلهم الفرد أنه ينقلب أمة عند ما يخاطب الأمة

وما أجمله موعداً موعدنا الليلة ! فنحن في مطلع الربيع ، إذ باشرت الأرض إخراج زينتها وعرض مباهجها ، ونشرت السماء كواكبها وشموسها وأقمارها وضاءة في رحيب الأفلاك ، وسرت الحياة نامية في فتى الغصون ، واهتزت الأرواح مترنحة لاستيعاب جديد النفحات . كذلك الشعوب العربية استيقظت من شتاء حالك الظلام طويل الأمد ، وانبرت تستقبل الفصل الجديد من حياتها ، متعهدة براعم الأمل والمجد في نهضتها ، ساعية إلى ازدهار ثقافتها ازدهاراً عامراً بهيجاً

الربيع يزف إلى الأرض رسالته ، ووست هول اليوم كما في الأمس وفي الغد ، يؤدي الى المجتمع رسالته ، و « العروة الوثقى » تواصل العالم العربي برسالتها ، فماذا ترى تكون رسالة الأديب إلى الحياة العربية ؟

أيها السادة والسيدات :

إذا نحن تنحينا في بحثنا عن الرسالة المثلى ، رسالة الأنبياء ، وجدنا أن الرسالة في معناها الضيق هي الصفحة التي يكتب فيها الكلام المرسل ؛ بيد أن معنى الرسالة أرحب من ذلك وأشمل ، إذ لكل فرد ، وكل كائن ، وكل شيء ، رسالته في معرض الوجود : فالشمس تؤدي رسالتها نوراً وحياة ، والزهرة تؤدي رسالتها عطراً ووسامة ، والجبال والوهاد تؤدي رسالتها تبياناً لطبقات الأرض وتنوع الخليقة ، والمروج والسهول تؤدي رسالتها خصباً وغذاء ، والسبل تؤدي رسالة الحركة والانتقال ، والانتقال يؤدي رسالة الأخذ والعطاء والتعاون المتبادل بين الأحياء

ولكل جهرة من الناس في كل بقعة من بقاع الأرض شؤون عدة ، إذا ما عولجت واستثمرت ونظمت وحسن التصرف فيها ، أصبحت تلك الجهرة شعباً فأمة ، وصارت تلك البقعة بلداً فدولة ، وفي كل بلد صناعة ، وتجارة ، وعمارة ، وميكانيكا ، وإدارة ، وقوانين

ولكل أمة عادات وتقاليد وتاريخ وتربية وحكمة وثقافة وآداب وفنون . الشؤون المحسوسة ، على تعددها وعلى ما بينها من فروق ، متشابهة واحدة في كل قطر ؛ وأخص خصائص الوحدة — والتشابه نجده في التقدم العلمي والميكانيكي ، وفي الحضارة الآلية السائدة في كل مكان

ترى ما هو الفرق بين مخاطب بالتلفون ، ومخاطب بالتلفون ؟ بين مستمع إلى إذاعة راديو ، ومستمع إلى إذاعة راديو ؟ وبين راكب دراجة أو سيارة أو طيارة ، وراكب دراجة أو سيارة أو طيارة ؟ ليس من فرق بينهما من حيث الخدمة التي تؤديها الآلة . أجل ، ثمت فرق في الغرض الذي نستخدم له الآلة ؛ وهذا ليس

موضوع البحث ؛ إنما الفرق كل الفرق في الشخصية التي تستعمل الآلة ؛ والشخصية لا تتكون إلا من العوامل الأدبية : التاريخ ، الاختبار ، الذكرى ، اللغة ، الفن ، الأدب

الأدب إذن من أهم المقومات للشخصية ؛ وربما كان الأصح أن أقول إنه حجر الزاوية في تكوين الذاتية الفردية والذاتية القومية بالتبع . والفرق بين الشخصية والذاتية فيما أظن هو أن الشخصية تتكون مما يحيط بنا ويتقلب علينا من شؤون وأحوال ، في حين أن الذاتية هي ما نظل عليه دائماً في صميمنا في جميع الشؤون وفي جميع الأحوال . فما أبعدنا بهذا التعريف عن التعريف الشائع أن الأدب هو المستظرف من الشعر والنثر ، وأنه صناعة لفظية حذقت حيلة النكتة والتورية ، واستسيفت منها البلاغة والحلاوة في وصف مجالس الأنس ، وتصوير جمال النساء ، وشرح لواعج الحب والغرام . كل هذا من الأدب بلا ريب ، وله أهميته ، وهو ذو إغراء ؛ ولكنه وجه فقط من الوجوه العديدة في الأدب . ولئن اقتصر كل من العلوم والمعارف على نفسه دون غيره تقريباً ، فميزة الأدب في أنه يحتضن الكثير من المعارف والعلوم ، وله أن يتغذى بها جميعاً ليعالجها على طريقته الخاصة ، فلا يكون بعد إلا أدباً

ولكم كانت المنتجات الأدبية والصور الخيالية سابقة للبحث العلمي ومعينته على الخروج من حيز القياس والافتراض إلى حيز التطبيق العملي والاختراع ! أليس أن شاعرية الشعراء طارت إلى أجواز الفضاء قروناً طوالاً قبل اختراع الطيارات ؟ وفيالق العشاق (والعشاق شعراء وأدباء دواماً) ، ألم تناج أرواح الأحباب برغم شاسع الأبعاد قبل أن يصبح الراديو أداة من أدوات المنزل ؟ ومن ذا الذي يقرأ ولو كتاباً واحداً من كتب الأديب الفرنسي جول ڤرن الذي وصف الانطلاق من الأرض إلى القمر وصفاً علمياً قبل أن يقوم علماء الستراتوسفير برحلاتهم الجوية ، وحدث عن سلك أعماق البحار في سفن ذات أجهزة ميكانيكية دقيقة قبل أن تحتوي أساطيل الدول على غواصات ترقب ما يجري في قلب اليم وعلى صفحة الماء ؟ من ذا الذي لا يذكر الكاتب الإنكليزي المعاصر ولز ، ومؤلفاته ذات الصبغة العلمية المتنبئة بمستقبل حياة ميكانيكية صرفة تترتب عليها حياة اجتماعية متوافقة ؟ لست من أشياع ولز ، ولكني أشير إلى نظرياته شاهداً على رحابة الميدان للأدب

وإذا نحن عدنا إلى الكتب الدينية الثلاثة : التوراة، والإنجيل، والقرآن ، وجدناها متفقة على جعل الفردوس الأرضي في شرقنا الأدنى . فكان لنا أن نقول إن مجد الآداب كمجد النبوات وكمجد الحضارات أشرق من بلادنا ، وكانت اللغات السامية أول أداة للإفصاح عنه

التوراة مليئة باللهجة الأدبية . والتوراة كتبت أولاً باللغة العبرية . والإنجيل ملىء باللهجة الأدبية ؛ والسيد المسيح تكلم بالآرامية والسريانية والعبرية ، قبل أن يكتب الإنجيل باليونانية واللاتينية لينقل بعدئذ إلى مختلف اللغات . والقرآن ملىء باللهجة الأدبية ؛ والقرآن هو الكتاب العربي المبين والمستودع الخالد لهذه اللغة التي لا تموت مهما توالت عليها القرون وتناهبتها تصاريف الحدثان

ترون من كل هذا أننا معشر الشرقيين عريقون في الأدب ، وإن أديباننا عمدت إلى اللهجة الأدبية لتكون أسرع اتصالاً بالنفوس وأبرع استيلاء على المشاعر . ولئن أجمع نفر من علماء اللغات في الغرب على أن اللغات السامية حماسية ، غنائية ، بيانية ، خطابية ، أكثر منها اختصاصية علمية ميكانيكية ، فنحن نعتز بذلك . لأن اللغة الأدبية هي لغة النفس ، لغة الجوهر ، لغة البقاء . واللغة المحتوية على الجوهر لا تضيق دون العرض والطارىء والإضافي . وليس لنا إلا أن نتابع الجهود التي باشرناها أفراداً وجماعات علمية — ناهجين نهج أسلافنا الذين نسخوا وترجموا ونحتوا واشتقوا وعربوا — لنجعل أداة اللغة كافية وافية في تأدية كل مستحدث من المعاني والمسميات والاختراعات العصرية . ولنا من اتساع اللغة ومرونتها ما يمكننا من صوغ المفردات وسبك القوالب على طريقة ترضي من الناحية الواحدة مولانا سيبويه ، وترضي الواقع والذوق من الناحية الأخرى ، فلا يكون اسم الراديو مثلاً : الطمطمان ، ولا يكون التلفون : أرزاً

ومعلوم أن الأدب كاللغة ، حليف التفهقر والتطور في الشعوب التي تعالجه . وآدابنا في تاريخها الطويل أصدق شاهد على صحة هذه النظرية لأنها ازدهرت ثم لازمها الجمود وفقاً لارتفاع الدول العربية

وهبوطها . وصدق تلك النظرية أظهر ما يكون فى عصرنا الحاضر .

نظرة إلى البلدان العربية ، فماذا نرى ؟ بعد هجعة ثلاثة قرون أو تزيد استيقظت الشعوب العربية ، وحركات اليقظة لا تكون منتظمة فى بادئ الأمر ، وإرادة المستيقظ لا تكون مستقرة ثابتة ، وبصيرته تظل وقتاً ما غائمة غير صافية ولا نافذة . المستيقظ يلبث حيناً حائراً بين خيالات الليل وحقائق النهار ، ولكن كم فى خيالات الليل من حقيقة ، وكم فى حقائق النهار من خيال ! شعوبنا على همتها وتحفزها ما زالت قلقة مضطربة ، وأدبنا على وفرة جهوده وغزارة مادته ما فتىء مضعضعاً ، غير واثق من نفسه ، غير مستقر . فما هى حاجتنا اليوم من الناحية الأدبية ؟

إذا كان الأدب صورة للشخصية العامة من خلال الشخصية الفردية الخاصة بحسناتها وسيئاتها ، بحوافزها ومعلوماتها ، بنورها وظلامها ، بتقاليدها وأوهامها ، بخواطرها وتمكناتها ، ببأسها ورجائها — إذا صح ذلك ، وهو صحيح — فنحن نحتاج اليوم إلى صوت الأديب وإلى رسالة الأديب .

المعترضون يقولون : ولكن الأقطار العربية متعددة ولكل قطر حياته الخاصة ولهجته الخاصة . أفيكون إذن لكل قطر أدبه الخاص ؟

كيف لا ؟ وهل غير ذلك فى الامكان ؟ أو ليس هذا هو شأن سائر الآداب ؟ أو تتكون الثروة الأدبية واسعة فى اللغة الواحدة إلا بتعدد الآداب المحلية وتنوعها ؟ أو ليس لكل من أميركا ، مثلا ، وانكلترا واسكوتلاندا وإرلندا ، أدب خاص مجموعها يكون آداب اللغة الانكليزية عموماً ؟ وفى كل هاتيك الأقطار العربية لهجة محلية هى غير اللغة الانكليزية ، والشعب يتخاطب بلهجته وباللغة الانكليزية ، ويكتب بهذه اللغة وبتلك اللهجة على السواء . فعلام نحن نشكو مما يراه الآخرون شيئاً جد عادى ؟ ومن المشاكل والمصالح والآلام والآمال ما هو مشترك بين جميع البلاد العربية . فرب زفرة حزن أو صيحة استبسال وجدت صداها متردداً فى ملايين القلوب العربية ! ورب رسالة أدبية انطلقت من قطر واحد ، فاجتاحت عديد الأقطار العربية المتناثرة من شواطىء الاطلانطيق إلى خليج العجم !

أجل ، نحن فى حاجة إلى أقلام تخاطبنا باللغة العربية ببيان جميل يصور شخصية الأديب ، ويشرح حالة الأمم ، وينشر أمامنا صحيفة الأزمنة الثلاثة : الماضى والحاضر والمستقبل . فالماضى ينبثق انبثاق الينبوع فيخصب النفوس . وكما يكتنه الأديب ذخائر الماضى فكذلك هو يطلع على شؤون الحاضر ، متصلا بكبار الحوادث التى تهز قومه فى النقمة وفى النعمة ، فى السخط وفى الرضى ، وإذ يرى الحوادث داخلة فى دور الغليان ، والشعوب فوارة صاخبة كالحمم فى فوهة البركان ، وإذ يشهد الظلم والعذاب والمرض والنفاق فيبحث عن الانصاف والصحة والصدق والانشراح — عندئذ تم فى داخله عملية عجيبة ، ولا العمليات الكيميائية . يخيل إليه أن موسيقى شائعة رائعة تنطلق من الأزمنة والحوادث والشعوب موحية إليه سر الفن الجميل فينقل الينا منها ما ينقل ، جاعلا لكل شىء أهمية خاصة تهز منا المشاعر ، وتستثير الحماسة ، وتكيف الآراء . ومن معالجة الأديب للأزمنة والحوادث والشعوب ينبعث لنا المزيج الفتان فيلفتنا إلى أن فى طبيعتنا رحاباً لم نكتشفها وإن فى أرواحنا ممكنات توسع أمامنا أفق الحياة .

وإذ يحدثنا الأديب عن النظريات والمذاهب والشخصيات نتحزب مختارين لها أو عليها ، فنتذكر نظرية وتؤيد نظرية ، نمقت شخصية ونحب أخرى نحاولين الاندماج فيها ، نمدح مذهباً وننتصر لغيره تائقين إلى نشره فى الملأ مع رفاق نوليهم الثقة . كذلك الأديب يجوز بنا بحر الحياة المكفهر كسفينة استغنت عن الشراع والقلوع وعن الرياح المؤاتية ، لأن له من نفسه القوة التى تسوقه إلى الأمام . وليس من اختبار يمر به إلا تأثرت به كتاباته ، فلا نفتأ نتطلع إلى كل ما يحدث له متسائلين عن سر قوته فى المناعة ، وعن سر قدرته فى الإبداع ، ذلك السر الدفين ، ذلك الجوهر المكنون المعرض عن كل تأويل وتفسير ، السباق إلى أجواء من التفكير والإحساس والتكوين ، لا نأبه لوجودها إلا بعد أن يجول جولته فيها

وسرعان ما يتصل الحاضر بالمستقبل فى فن الأديب : جيل جديد يتخرج على آثاره وعلى مؤثراته ، فيشب حاملاً معه الفكرة التى تنيل الحياة قيمة فى تذوق الجمال الحسى والأدبى ، وفى ممارسة الجمال تأملاً وسعياً وجهاداً ، رافعاً بيده مشعل الحب العتيد للوطن ، والرجاء والتقدم ، والشهامة والبطولة ، ولإرضاء غريزة الحرية !

رســالة الأديب تعلمنا أن لكل قطر من الأقطار العربية حضارة غارة حلت محلها الحضارة العربية ناسخة عنها وعن غيرها لتسكها فى قالبها وتدمغها بطابعها الخاص . رسالة الأديب تعلمنا أن الغرب الحاذق عرف كيف يقتبس عن حضارتنا يوم كانت حضارته وثقافته وشيكة . ولكن ما أغزر ما استفاد وما أخصب ما أنتج ، وما أبدع ما ابتكر ! وإن الحضارة العربية كانت الصلة المتينة بين الغرب الجديد وحضارة اللاتين والأغارقة . وها هو ذا الغرب يرد إلينا الآن دينه كشعاع من الشكر بما ينشره بيننا من ثقافة ، فعلينا أن نأخذ عنه بمثل الهارة التى أخذ بها عنا !

رسالة الأديب تعلمنا أن الحضارة الميكانيكية أدوات نستعبدها ونستخدمها ، لا أدوات تستخدمنا وتستعبدنا . وإنه لا يكفي أن يضغط امرؤ على الزر الكهربائي فينال سحرى النتائج ، وأن يمتطى سيارة أو طيارة فيطوى شاسع الأبعاد ، وأن يرقص رقصة ويصغى إلى إذاعة ويتعمل التأنق والحذلقة متكلما بخليط من لغتين أو ثلاث — لا يكفى كل ذلك ليكون شخصية ممتازة ترهب هيبتها الأكوان

رسالة الأديب تعلمنا أن الحضارة الآلية التى ألفناها ولم يكن يحلم بها أجدادنا تجعلنا اليوم أشد احتياجاً منا فى الماضى إلى ثقافة أدبية تدعم الحضارة الآلية وتكون لها ركناً ركيناً . وإن هذه الحضارة الآلية المنتقلة بسرعة من بلد إلى بلد ومن جيل إلى جيل ، ننعم بها — ونشقى ! — دون أن يكون لنا يد فيها . أما الثقافة الأدبية فيجب أن يحصلها كل فرد يوماً فيوماً ، وساعة فساعة ، مدى الحياة

رسالة الأديب تعلمنا أن للعالم العربى على تعدد أقطاره وحدة واحدة تشغل مكاناً فسيحاً فى القارتين الآسيوية والأفريقية . ويستطيع أن يقول هذا القول علماء الجغرافيا وعلماء التاريخ وغيرهم . ولكن للأديب فناً مغرياً ينيلنا الثقافة والفائدة ، بينما نحن نرتع فى بحبوحة من اللذة والمتعة فى جو ممتنع أخاذ هو فى الواقع جو الحياة

رسالة الأديب تعلمنا أن نفاخر بلغتنا العربية الممتازة على سائر اللغات بأنها ولدت قبل لغات قديمة اندثرت منذ قرون ، وما زالت العربية تفيض حياة ، بحارية حتى أحدث اللغات بالقوة والمرونة والجزالة والرشاقة . كل أمة تسعى الآن إلى نشر لغتها بين الأمم الأخرى ، باذلة فى سبيل ذلك المال والإغراء والدعاية والجهود . أما نحن فانتشار لغتنا شىء واقع ، وميزتها هذه تربط بين الأقوام العربية برباط قوى جاعلة الفرد الواحد منا ملايين

رسالة الأديب تعلمنا كيف نخلق حضارة أدبية ، إذ بها لا بغيرها تقاس مواهبنا ، ويسبر غور طبيعتها ، وهى التى تثبت وجودنا ، وتنطق بلساننا مترجمة عن مبلغ الانسانية فينا

رسالة الأديب تعلمنا حب العزلة والسكون ، وترجمنا عن الفحفحة وهوس الظهور ، فنعتكف على أنفسنا نعالج ممكناتها للظفر بمحمود النتائج . فالسنبلة المتمايلة على صفحة المروج ، حاملة بشائر الحياة ، لا تولد حبتها ولا تنضج إلا فى أحشاء الأرض ، فى جو الوحدة والهدوء والكتمان

رسالة الأديب تعلمنا ألا نخشى كارثة ، ولا نهيب مغامرة . كل زمن خطير فى التاريخ كان زمن اضطراب وكوارث ، وأعظم فوائد الانسانية نجمت عن عصور العذاب والخطر . الخطر مرهف ، ولا يعرف شأن ذى الشأن إلا يوم الكريهة . والعاصفة لا تقتلع إلا ضعيف الأغراس ؛ أما الأشجار ذات الحيوية العصية فالأعاصير تلح عليها وتهزها هزاً عنيفاً فلا تزيدها إلا قوة ومناعة

رسالة الأديب تردنا عن عديد الشخصيات القومية التى تجذبنا من كل صوب لتركزنا فى شخصيتنا القومية الأبية

رسالة الأديب تعلمنا كيف نفهم كل شىء ونستفيد من كل شىء ، باحثين عن الصواب والكمال خلال كل نقص وكل زلل ، نازعين إلى الجمال الحسى والأدبى حيال كل دمامة خلقية وخلقية مساجلين النفوس والعناصر ، مناجين المنظور وغير المنظور ، لنجعل من حياة متناثرة متداعية ، حياةً متناسقة متماسكة

أى شىء لا تعلمنا رسالة الأديب ؟

إنها قوة تستفز قوتنا ، وموهبة تحفز مواهبنا ، وصرامة تردنا عن الحقارة ، وبسالة تدفعنا إلى النبالة ، وعذوبة تؤاسى أحزاننا ، وأغرودة تطرب أشجاننا ؛ وهى عالم مستقل متماسك يسوقنا إلى تكوين عالمنا المتآلف المستقل !

نحتاج إلى الأديب يأخذ منا ويعطينا ، فيرسل صوته أريباً رصيناً مسيطراً أخاذاً حصاناً !

ونحتاج إلى رسالة الأديب قويمة غنية عتيدة ملهمة لتوقف قوميتنا فى مكانها المشروع فى معرض القوميات بميدان العمران العظيم !

« مى »